

سياسة تمخضت بلعنة

للأستاذ عبدالقادر المغربي

وهو ما وقع أيها السادة : فإن مشروعاً جغرافياً في أوله ، دولياً سياسياً في آخره تمخض عن بحث لغوي ، جعلته موضوع حديثي اليوم .

عدت إلى طرابلس الشام سنة ١٩٠٩ م . بعد إقامتي في مصر بضع سنوات محرراً في جريدتي الظاهر والمؤيد ، وفي السنة التالية أي في سنة ١٩١٠ م أخبرت وأنا في طرابلس بأن سياحاً من الانجليز يسألون عني ، ولما اجتمعت بهم ، إذا هما انجليزيان ، ونائبهم عربي عراقي ، وقد ذكروا أن غرضهم من مجيئهم سورية البحث عن المخطوطات القديمة . وبلغهم أن لديّ منها ، فهم يريدونني لذلك .

والثلاثة في حدود الأربعين من أعمارهم ، وأحد الانجليزيين من سكان لندن المقيمين فيها : وهو ربة ، ممتلي الجسم ، حنطى اللون ، وقور ، تلوح عليه مخايل الاصاله ، وفيه حياء يتراوى من تحته قلق فكر ، واضطراب بال ، يعرف كلمات قليلة من العربية ، واسمه (السيد بكستون) ، وأخبرت أنه من أشرف الانجليز . ومن كبار أغنيائهم .

أما رفيقه الانجليزي الآخر فسمي لي نفسه (الحاج عبدالله الزنجياري) والملاح الانجليزية ظاهرة في لونه وسحنتيه ووزقة عينيه - أكثر من ظهورها في رفيقه « باكستون » ، وقال إنه من أصل انجليزي ولكنه مولود في زنجبار ، ولذا يتكلم العربية . وهو ضابط في الجيش الانجليزي وكان قبل بضع سنوات قام بسياحة من زنجبار إلى أواسط أفريقيا ، وله اكتشافات جغرافية : منها العثور على طريق جديد من زنجبار إلى بحيرة

فكتوريا نيازنا . وقد ألف في اكتشافه هذا كتابا طبع ونشر وانتفع به المعينون بقارة افريقية من رجال السياسة . وانه هو ورفيقه « باكستون » مسلمان . لكنه لا ذكر اسلامية (باكستون) حجم قليلا : لا أن جهل باكستون للغة العربية يجعله عاجزاً عن فهم شرائع الاسلام . ومن أجل هذا اصطحب معاً يعلمه العربية . وأشار إلى ثأتهم العربي العراقي . وقد لحت من خلال كلام الحاج عبد الله أن « باكستون » هو رئيس الثلاثة . والمتكفل بنفقات السفر . وأن الحاج عبد الله كولو أبهم أو مونيرم المحرك . أما ثأتهم العراقي فاسمه الاستاذ او الحاج (عبد المجيد) وهو من مواليد بغداد ومقيم في لندن يعلم العربية وآدابها في احدي معاهدنا ، وقد كتب على بطاقته مع اسمه هذه الكلمات (رقم ٢٣ شارع فيرهولم حي ويست كتركتن) .

ولما علموا أنني رجعت حديثاً من مصر ، وكنت محرراً في المؤيد ازدادوا اهتماماً بي . ورغبة في إطالة مجالستي ومحادثتي .

هذا ما كان بيننا من الحديث في المرحلة الأولى من التعارف . أما المرحلة الثانية فكانت أكثر تفتقاً بالكلام . واشد صراحة بالأسرار فقد قالوا : إن غرض الانجليزيين من رحلتهم إنما هو تعلم اللغة العربية . لفرط حاجتهم إليها في الشرق . وأنهم لذلك يقصدوني . ثم طلبا مني أن أعي لهم دراسة في اللغة العربية تقرب اليهم الشققة اليها . فسألتهن وماذا تريدون أن يكون موضوع الدراسة ؟ فقال الحاج عبد الله : فيما له علاقة بالطعام والشراب ، لأن ألفاظها أكثر دوراناً على الالسنه ، واستعمالاً بين الناس .

وجاء الوقت المعين للدرس اللغوي فألقينه عليهم . وكان موضوعه طائفة من فصيح كلمات اللغة تتعلق بالطعام والشراب وخاصة الكلمات الدائنة على وجبات الطعام اليومية عند العرب ، ومقارنتها بوجبات الطعام عند الأفرنج .

وأعترف لكم أيها السادة بأنني لم أكن موقفاً في هذا المرس ولا مقارباً ، وذلك لأنني عرضت عليهم من ألفاظ اللغة غير المألوفة فوق طاقتهم ، وما لا حاجة لهم به في هذا الطور من تعلمهم . نعم إن (الحاج عبد الله) قد يستفيد بعض الشيء . أما السيد (باكستون) فلا يمكن أن يستفيد من درسي ولا قلامة ظفر . وقد ظلمته يعلم الله كما ظلم ذلك الشيخ الأزهري مستشرقاً من الأوربيين من أصدقاء الشيخ محمد عبده : فقد سأل هذا المستشرق بعد أن أسلم - الشيخ عبده أن يدلّه على شيخ يعلمه كيف يصلي الصلاة الاسلامية ، فسلمه إلى شيخ (أظن أن اسمه الشيخ عبد المعطي) وقضيا أياماً ، سأل بعدها الشيخ عبده صديقه المستشرق عما اذا كان بدأ يصلي ؟ قال لا يا سيدي ، قال : ولمه ؟ ، قال لأنني الآن في صدد تعلم الاقسام السبعة الماء الطاهر ، وبعد ذلك أتعلم الوضوء ثم الصلاة . فطار صواب الشيخ عبده غيظاً ، وكان حريصاً على تثبيت إسلامية هذا المؤمن الجديد . ونادى الشيخ (عبد المعطي) فوبّخه على هذا المطل ، الناشئ عن جهل ، فقال عبد المعطي وكيف أصنع ؟ أتكون صلاة من دون معرفة أقسام المياه ؟ فيعرف المرء ما يجوز منها وما لا يجوز ، فقال له الامام : ويحك !! ومن قال لك إن هذا يحتاج إلى طول مدة ، ودروس عدة ؟ : - قل له (توضاً من الماء الذي تستطيه لشربك)

وهكذا أيها الاخوان ، كان أمري مع الانجليزي النبيل « باكستون » ، فبدل أن أعطيه عن الطعام والشراب تعابير بسيطة تفيده في لغة التخاطب حشوت أذنه بمسائل تصلح الاذكاء من أبناء اللغة العربية ، وهذه المسائل هي التي جعلتها موضوع محاضراتي وشجعتني بجمعنا العلمي على أن ألقى عليها عليهم ، ومن مواضع العجب أنني ما كنت أجد من الانجليزيين ، وأنا ألقى الدرس اللغوي عليها تبرماً بدرسي ، ولا مثلاً من تشدني بكلمات

اللغة الخوشية احيانا بل كانا على العكس يظهران الارتياح ، وصرحا بأن البحث مفيد جداً ونافع جداً .

وقد رأيت هذا يعلم الله منهم ، وأوقع في نفسي أن في الأمر سرّاً سوف يظهر ، نعم ظهر في المرحلة الرابعة التي كادت "نورطني" في أهوال : أهورها ركوب أسفار ، ومفارقة صغار ، وبعد عن الديار .

قد صرح لي (الحاج عبد الله) أخيراً أنه هو ورفيقه " بكستون " مهتمان في نهضة الوسائل إلى اكتشاف منطقة مجهولة في أقصى الجنوب من ليبيا . قلت فزمان . قال لا ، قلت جغوب ؟ قال أبعد منها ، قلت واداي وبورنو ؟ قال في شمالها . قلت ما اسمها ؟ قال (تيبستي) والقبائل الضاربة فيها تسمى (التيبو) قلت لم أسمع بهذا الاسم قط . قال هي جبال عمالة بقفار وسكانها منزولون عن العالم تقريبا ، وقد أعدنا حملة في لندن لأجل الوصول إليها ، وسوف أعلن اكتشافها ، كما أعلنت اكتشافني الطريق إلى بحيرة فكتوريا .

فأطرت قليلاً كأنني تذكرت شيئاً ، ثم قلت : كنت كتبت في المؤيد وأنا في مصر مقالا أعلنت فيه أمر النزاع القائم في (واداي) بين أميرها صالح العباسي وبين بعض بني عمه بشأن ميل بعضهم إلى فرنسا التي تحاول نشر نفوذها في تلك الأضقاع وميل البعض الآخر إلى الدولة العثمانية صاحبة البلاد الشرعية . فذلك الصقع هناك كان يتنازعه النفوذ الفرنسي والتركي والسنوسي بل والمصري ومن ورائهم ايطاليا تتجرع العنص ، وتترقب الفرس .

فقال لي الحاج عبد الله متفرباً في وجهي : ومن استوحيت هذه المعلومات التي كتبتها في مقالك عن تلك البلاد ؟ قلت أخذتها من صديقي (السيد عبد الله الكحل) التاجر الدمشقي في خان الخليلي بالقاهرة : فإن له تجارة واسعة وعملاء في واداي ، وكان يرسل إليهم البضاعة ، ويدس فيها أعداداً من جريدة المؤيد التي أحرر فيها ، وقد أطلعني على

جواباتهم إليه . فكنت أقرأ فيها نتفاً من حوادث تلك البلاد وأودعها مقالاتي في المؤيد . فأطرق الحاج عبد الله قليلاً وكأنه اكتشف سرّاً . وقال أطلعني على مقالك عن واداي واسمح لي أن آخذ صورة عنه ، ثم قطع الحديث معي إلى ما بعد قراءة المقال . وبعد أن أخذ عنه نسخة عاد ثاني يوم اليّ وقال : إن ميلي للاكتشافات وولع رفاقي " بكستون " بالسياحات جعلنا نهيو حملة ، أو بعثة علمية ستقوم من طرابلس الغرب في الصيف الآتي إلى بلاد (التيبو) المجهولة . والحملة مؤلفة من كذا وكذا بغلاً وبعثلاً وخيمة ومؤونة وسلاحاً ، وقد وجدوا أنفسهم في حاجة إلى رفيق من علماء الاسلام يستأنسون به في سلوك تلك البلاد الاسلامية البحتة ، وإيهم وجدوا في تلك الشرائط التي يحسن أن تتوفّر في ذلك الرفيق . واتفق أن كنت يومئذ أعالج سياسة حزبية وكنت منجازاً إلى حزب الاتحاد والترقي الذي كانت يده السلطة في ذلك الحين ولم يكن انجيازي هذا هاوناً بقوميتي العربية يعلم الله بل استمساكاً باسلاميتي . لا جرم أن قيام حملة انجليزية من طرابلس الغرب الى جغوب ثم واداي مقرّ أناس متعصبين لدينهم ودولة خلافتهم - حملة مثل هذه من مصلحتها أن يكون برفقتها شيخ مسلم متعمم عرف شيئاً من أحوال تلك البلاد وعرفه أهلها مما كان يكتب في المؤيد ، وهو مغربي الأصل ومنسوب إلى أسرة مشهورة في تونس الى اليوم ، وفوق ذلك كله حزبيته التي تساعد على التناغم مع (رجب باشا) والي طرابلس الغرب يومئذ ، وتندراً عن الحملة تهمة خدمة الاستعمار أو التجسس والعمل على الإخلال بمصالح الخلافة الاسلامية . كل ذلك كان يجول في نفس الحاج عبد الله الانجليزي . ثم قال لي : ولك الحق اذا رضيت ان ترافقنا في أن تملئ علينا الشروط التي تراها في مصلحتك .

عندها رأيتي واقفاً في مفترق الطرق حائراً متردداً بين السلب والإيجاب ، بين الاقدام والاحجام ، وكان لي عم شيخ كبير فقيه شديد

الحفاظة على التقاليد. فارتاع لهذا النبا، وعارضني في الرحلة أشده معارضة، وكنت أقول له إن سفري فيه خدمة لدولة الخلافة، وسيكون وسيلة لمعرفة اسرار تلك الأصقاع الاسلامية النائية ومقدار مناعتها ومناعة سكانها فأقدم بها تقريراً إلى الدولة، أو أكتب سياحتي في كتاب أنشره، فيستفيد منه المسلمون السياسيون وغيرهم.

ثم عرضت عليهم شروطي فقالوا إن ميزانية الحملة تضيق عنها، وأنهم أصبحوا بعد أن ذكرت ما ذكرت عن التاجر الدمشقي المقيم في مصر أعني السيد عبد الله الكحال - مضطرين أن يسافروا إلي مصر فلندن فليبيا، ومن هناك يكتبون إلي رأيهم في تسوية الشروط بيني وبينهم وسيدالون كل عقبة في هذا السبيل ثم إني بعد ذلك أوافيهم في طرابلس الغرب. وطلبوا مني كتاباً إلى صديقي التاجر الدمشقي في خان الخليلي. فأعطيتهم الكتاب وبعد سفرهم بأيام جاني كتابان من السيد الكحال: الأول في (١ نيسان) والثاني في (٢٤ أيار) من سنة ١٩١٠ قال فيها ما خلاصته: إنه اجتمع بأصدقائي أعضاء البعثة ونصح لهم بالعدول عن مشروعهم لوعورة الطريق وتعصب السكان ضد الدسائس الأجنبية، وخصوصاً بعدما احتلت فرنسا (واداي) فانها سدّت الطريق بمرّة واحدة. ومما قاله الكحال في كتابه: واليوم كانت جلسة الورداني قاتل بطرس باشا غالي ولا يد انكم تظلمون عليها من الجرائد وقال في كتابه الثاني: وأفحننا الحاج عبد الله الزنجياري بخصوصه أن لا يسافر: لأن شبهه شبه الانجليز تماماً بخلاف الحاج عبد الحميد رفيقهم العراقي، فظاهره شرقي مسلم، قال الكحال: لكن وجدنا رغبتهم في السفر مع بعضهم فأوعدناهم عندما بنفتح الطريق نعرفكم في طرابلس الشام فتعرفوهم في لندن، ثم قال وقد مكثوا في مصر ثلاثة أيام. ثم سافروا إلى لوندرة.

هذه خلاصة ما جاء في كتب السيد عبد الله الدمشقي. أما الحاج عبد الله الانكليزي أو الزنجياري فأرسل إلي كتاباً أيضاً من مصر.

وخلاصة ما قاله فيه: (إنهم اجتمعوا بالكحال فأكرمهم ونصح لهم بأن السفر في مثل هذه الأوقات مستحيل، قال ولكن داعيكم ما زلت عازماً على هذا السفر مها كلف الأمر، وإن شاء الله أطلع من طرابلس الغرب في آخر هذا الصيف وسأكتب اليكم من لندن. والحواجه بكتون يسلم عليكم)

ثم طرأ اليها الاخوان ما لم يكن في الحسبان: ذلك ما كان من غارة إيطاليا على طرابلس الغرب قبل أن يأتي آخر صيف سنة ١٩١٠ م. وانقطعت عني أخبار أبطال قصتي هذه إلى اليوم.

ثم إني ما كنت أدري أكانت الحملة على نفقة رفيقهم (بكتون) كما أوعدهوني أو على نفقة الحكومة الانجليزية نفسها، أما لإسلام بكتون والحاج عبد الله فهو من نوع الاسلام السياسي المصطنع الذي أصبح أمره معروفاً، والغرض منه مكشوفاً، وأذكر أن مسألة (الحجاب والسفور) كانت على أشدها يوم مجيء هذه البعثة إلى سورية وجاء ذكرها أمام (الحاج عبد الله الانكليزي) فقال: إنه يرى وجوب الحجاب على المرأة فلا تخرج من بيتها ولا تختلط بالرجال وكل ما عليها أن تلبس وتخدم زوجها وتربي أولادها. وربما كان قوله هذا بمثابة حجة شرعية على صحة اسلامه. هذه هي أها السادة الواقعة السياسية التي تمخضت بمسائل لغوية اقترحها علي أولئك الانجليز. وقد قلت لكم آنفاً إني لم أكن موقفاً فيها وأرجو أن أكون موقفاً ولو بعض التوفيق في إقائتها عليكم وضم نعمتها إلى نعمة أناشيد حركة (التحرير) التي تسمعون اهاريحها حواليك (١٢ نيسان سنة ١٩٤٦)

أشرت آنفاً إلى أن موضوع الدرس اللغوي الذي ألقينته على أصحابنا الانكليز هو وجبات الطعام عند العرب ومقارنتها بوجبات الطعام عند الافرنج.

وقد رأيت أن أمهد إلى غرضي بذكر شيء له علاقة بالطعام والشراب فأقول: الذي يدعو إلى الشراب هو العطش. والعطش اسم لكل

ما اعتلج في النفس من شهوة إلى الشرب . فإذا صاحبَ هذه الشهوة ضجيج وشكوى وقلة صبر سمي العطش اذ ذاك (أواما) وإذا صاحبَه دوران حول موارد الماء ، وفقد أسباب الوصول إليه سمي (لوابا) . وإذا صاحبه صرير الصهاخين وتصويتها سمي (تصرير الصماخ) . ومن عوارضه السداد السمع . وإذا صاحب العطش جفاف ريق ، سمي (طلتي) . ويقال منه (طليتي فة) . وإذا صاحبه اضطراب وقلق سمي (تلعلعا) يقال مرة فلان يتلعلع من العطش .

أما الجوع فإن صاحبه تعَب سمي (سغبا) وإن قام الجائع يسمى هنا وهناك في طلب ما يأكل ، سمي جوعه (علتها) . وإن صاحبه جوعه غضب ، سمي الجوع اذ ذاك (ضرما) . وإن صاحبه برد سمي (خرصا) . وإن صاحبه ضبور بطن سمي (خوي وطوي) . وإذا صاحبه جزع وشكوى ، سمي (قصفا) . وفي هذه الحالة يسترخي البطن ويفتر ، فيوصف بالقصيف . ويقال (بطن قصيف) . والجوع الذي يصاحبه لين وتكسر ، يسمى (جخرأ) . وإن صاحبه ضعف صوت سمي (خفوتا) . وإن صاحبه انحناء ظهر وقرقرة بطن ، سمي (أطيلا) . وإن اضطر الجائع إلى عصب بطنه ، سمي جوعه اذ ذاك (العصب) .

فإذا بدر الطهارة والتبدل إلى إنائه بالطعام بإنائه يسع ما فيه كفاية رجل واحد ، سمي الإناء اذ ذاك (صحيفة) . وإن وسع ما فيه كفاية اثنين أو ثلاثة ، سمي (مشكلة) . وكفاية خمسة (صحفة) . وكفاية عشرة (قصة) . وكفاية ما فوق ذلك (جفنة) .

فإذا قدم التبدل إلى الجائع الشواء أو الشاة المصلية من دون تقديم ما يؤكل معها عادة من خبز ومقبتلات صرخ في وجوه التبدل : قائلا (وأين مادها) ، أو (وأين أشماطها) ؟ فإذا عجّلوا بذلك له ، قيل :

أكل فلان الشاة المصلية بمآدمها أو بأشماطها . وأكل الشواء بمآدمه أو بأشماطه .

وهذه المقبتلات والمشهيات على اختلاف أنواعها تسمى (الأزار) . وتجمع على (أباير) ويظهر أن الأزار في الأصل جمع للبذر وهو الحب الذي يبذر في الأرض للاستنبات ، ثم تصرفوا فيه ونقلوه إلى المشهيات التي تكون بذور النبات مما يستعمل فيها أحيانا . ويرادف الأزار (الأفاويه) ، وأصلها الرياحين التي تبيس ، ثم تسحق وتدخر للتطبخ بها . والمشهي إذا كان أخضر سمي في الغالب (تابلا) كالترخون مثلا . وإذا كان يابساً سمي (حفا) ، ولعله إذا كان مسحوقاً سمي (دقة) وإذا كان يلوّن الطعام سمي (صباغا) .

وكانوا يتخذون من بذور البصل أو صفاره تابلا ولذا كان (الفزح) من أسماء التوابل .

هذا هو الأصل في وضع تلك الكلمات ، لكننا نراهم أحيانا ينقلون الكلمة من معناها الأصلي أو يعممونها بعد أن كانت خاصة أو يخصصونها بعد أن كانت عامة ، شأنهم في معظم كلمات لغتهم .

وهناك كلمات يحسن اطراحها لهجنتها وكراهتها في السمع ، مثل (الجخر) وهو اسم لبعض أنواع الجوع كما مر ، ومثل (الكامخ) وجمعه كوامخ وهو اسم للمقبتلات . قيل لأعرابي وقد حضر مائدة لأهل الحضر : هذا هو الكامخ ، كل منه . قال : وأبيكم كخ فيه . ومن أسماء المقبتلات ما ابتدل لكثرة استعمال العامة له فينبغي أن يستعاض عنه بما مر من الفصيح وهذا كالحلخل والطرشى .

وننتقل إلى هدف البحث أو موضوع الدرس وهو وجبات الطعام عند العرب والأفرنج فأقول : تختلف المرات التي يتناول فيها الطعام

باختلاف طباع الأمم واقليمية بلادها وثقافة الاشخاص وترف معيشتهم .
والعادة الغالبة على طوائف البشر ، أن تكون مرات الطعام اليومية فيهم ثلاثاً :
صباحاً وظهراً ومساءً .

ولكن من الاشخاص من يأكل مرة واحدة في اليوم كالسيد جمال
الدين الأفغاني ، فقد قالوا في ترجمته إنه كان يأكل الوجبة أي الأكلة
الواحدة في الاربع والعشرين ساعة .

ومن الأمم من يأكل خمس مرات أو أكثر كالشعب البريطاني :
بل قالوا إن بعض مترفيهم قد تبلغ وجبات طعامه اليومية نحو الثمان .

والوجبة اسم للأكل مرة واحدة في اليوم والليلة . ويقال وجَّب
عياله : إذا جعل قوتهم كل يوم وجبة . ويقولون في كتب التراجم :
فلان من أصحاب الوجبات يعنون أنه يأكل في اليوم مرة واحدة

أقول : وإذا ضم الى الوجبة أكلة ثانية أو ثالثة في اليوم الواحد
هل يصح أن يطلق على هذه الأكلة المقرونة بأكلة اخرى اسم الوجبة
والوجبتين والثلاث وجبات ؟ لم أظفر بنص على ذلك : والظاهر عدم

الجواز بدليل اشتقاق فعل (وجَّب عياله) من مادة الوجبة لبدتوا به
على وقوع الأكل مرة واحدة ، ولو كانت الوجبة بمعنى المرة الواحدة
من الأكل لا الأكل مرة واحدة لكان معنى (وجَّب عياله) حدُّد

لهم مرات الأكل : مرة أو مرتين أو ثلاثاً مع أن معنى (وجَّب)
ليس كذلك . ومما يمكن فقد جوزته واستعملته في بحثي هذا تسامحاً أو

استنتاجاً من حديث خالد بن معدان (من أجاب وجبة الختان فقد غفر
له) ولا جرم أن من يجيب وجبة الختان لا يجب عليه أن يكتفي بها
وحدها صحابة نهاره ، فهو يأكل في بيته مرة ثانية ويبقى اسم الوجبة

على وجبة الختان بالطبع . وأيضاً في حديث الحسن في كفارة اليمين
(يُعلم عشرة مساكين وجبة واحدة) فالتنصيص بذكر (الواحدة)
يجوز لنا ان نقول (لا وجبتين) فنكون بذلك قد سمينا الأكلتين في

النهار وجبتين ، وإذا لم يسلم لي هذا الاستنتاج فلا مقدوحة لي عن الاعتذار
بالتسامح في هذا الاستعمال وهو تسامح له نظائر في كلام البلغاء ، ولا سيما
إذا كانت هناك قرينة تدل عليه وهي قولي هنا (الوجبات اليومية) فإن
كلمة اليومية تشعر بأن مرادي بالوجبات المرات وقد يقال أن التعبير بمواقبت
الطعام يعني عن الوجبات . نعم ولكن ليس المواقبت مفرد مستعمل في
معنى المرة الواحدة من الطعام .

والوجبة في معناها أخوات وهن : (الوزمة) و (الوزبة) و (الوقعة) .
وقد اشتهر استعمال الوقعة في معنى مرات الأكل اليومية أكثر من استعمال
(الوجبة) اذ يقولون فلان يأكل أربع وقعات أو خمس وقعات أو وقعة واحدة .

على أن الوقعة في كلام البلغاء أكثر ما تستعمل في معنى أن يحدث
المرء مرة واحدة في اليوم والليلة : ففي (الحديث) (كنت آكل الوجبة
وأنجو الوقعة) . وسئل أعرابي : كيف كان سيرك في سفرك ؟ فقال :

(كنت آكل الوجبة وأنجو الوقعة وأسير الخبب الى آخر ما قل) .
ويظهر من تتبع كلمات اللغة أن لكل مرة من أكالات الطعام يأكلها
الانسان في اليوم اسماً خاصاً بها عند العرب ، وهذه الاسماء قد تبلغ الخمسة
أو الستة فتكون وجبات طعامهم خمساً أو ستاً .

* * *

الوجبة العربية الاولى

المعلقة (بضم العين) وقد قالوا في تفسيرها انها الطعام الذي
فيه بلغة أي كفاية الى وقت الغداء . فقولهم : الى وقت الغداء يشعر
بأن طعام المعلقة يؤكل قبل ارتفاع النهار وهو الوقت الذي يقع فيه

الغداء كما يأتي ، فطعام المعلقة اذاً هو اسم الوجبة الاولى لمن
يعتادها : إذ هي ليست عامة كالوجبات التي يبدؤها . وللمعلقة معنى آخر
في اللغة ، وهو ما تقع به الكفاية في تخفيف ألم الجوع الطارئ في أي
وقت كان لا وقت الصباح وحده . وهذا المعنى لا علاقة له بالوجبات

الموقوتة التي نحن في صدد بيانها . ومثل الملققة في هذا المعنى (البُلغنة) و (الفُغنة) و (الرمان) وهو قدر ما يمكس الرمق من الطعام . ويقابل الملققة والرمان عند الافرنج ما يسمونه كاس كروت (Casse Croûte) أي قنبر الرغيف . وأصبحوا يريدون به ما يكسر ألم الجوع من الطعام القليل ولو قنبرة رغيف أو الأكلة الصغيرة المختصرة (Petit repas Sommaire) .

والملققة بمعنى طعام أول النهار له في اللهجات الدارجة مماير تختلف باختلاف الأقطار العربية وأشهرها في بلادنا (فطور - صبحية - كسر صفرا - ترويقة) ويتداعى أهل دمشق الى الاجتماع على الصبحية في بيوتهم كما يتداعون الى الغداء والعشاء . ويقابل الوجبة العربية الاولى اعني الملققة الوجبة الافرنجية الاولى ، وهذه المقابلات التي نعقدها بين وجباتنا ووجباتهم ، انما هي من حيث العدد والترتيب في الخارج ، لا من حيث المواقيت ، لأن المواقيت تختلف باختلاف الأشخاص أحياناً فضلاً عن الأمم .

فوجبة الافرنج الاولى يسمونها Petit déjeuner ويسمونها الانكليز (بريك فاست Breckfast) ومعناها فسح الصوم أو كسر الجوع ، وهذا كما تقول كسر الصفرة .

الوجبة العربية الثانية

الغداء . وهو طعام الغدوة عند العرب . وربما كان هذا الاسم مأخوذاً في الاصل من وقت إطعام الابل ، ففي (المخصص) (رعني الابل في اول النهار غداء ، وقد نفذت ، وغداها راعيها) ونحن اليوم نتناول الطعام نصف النهار وبعده ونسميه غداء ، مع أن الغداء والغدوة عند العرب هما اول النهار لا نصفه . فوقت الغداء عند العرب الاقدمين ، الذي هو الوجبة الثانية تشغله نحن اليوم بطعام الوجبة الاولى أعني الملققة التي نسميها فطوراً .

ويقابل الوجبة العربية الثانية الوجبة الافرنجية الثانية واسمها عندم (Déjeuner) ويسمونها الانكليز (لانش Lunch) هذا ما ذرّجوا عليه اليوم ، والا فان ترجمة « Déjeuner » طعام الصباح ، أما طعام الغداء فاسمه في الاصل Diner .

ونرى المترجمين مضطربين في ترجمة اللفظين : Déjeuner و Diner واضطرابهم ظاهر في معاجمهم نفسها : فهم تارة يترجمونها بالغداء ، وطوراً بالعشاء ، وذلك لاسباب أو اعتبارات يعلمها أهلها : ففي القاموس العصري مثلا تجده يقول في ترجمة Diner (عشاء : أكل المساء - غداء : أكل الظهر) . ولذا اكتفينا في تسمية الوجبات بما اشتهر على الالسة وتداوله الناس من أعاجم ومستعجمين فانهم يسمون طعام الظهر أو بعده Déjeuner ولانش (Lunch) ، وبقية كلمة (Diner) تطلق على طعام المساء لمن يتناول فيه طعاماً : لان وجبة الغداء عند الاعاجم والمستعجمين أصبحت المعول عليها في قيام الجسم مدّة ال ٢٤ ساعة .

الوجبة العربية الثالثة

الضحاء وقالوا في تفسيره هو طعام الضحوة الكبرى ، واسم الضحاه هذا مأخوذ أيضاً من اطعام الابل ، ففي المخصص (رعني الابل في متوع النهار ضحاه) ومتوع النهار بلونه غايه ارتفاعه . قال : وقد تضحّت الابل وضحّاه راعيها .

وهذه الوجبة هي التي نسميها اليوم (غداء) . وكان الاشبّه باصطلاح العرب أن نسميها (ضحاه) . ونرى العرب قاربوا بين وجباتهم الثلاث التي تقع في النصف الاول من النهار ، على فرض أنهم يأكلونها كلها ، فلا يأتي نصف النهار حتى يكونوا فرغوا منها . على أن هناك كلمة الدلالة على طعام نصف النهار ، حكاهما البيه وهي (الكرزمة) وقال (هي الأكل في نصف النهار) . فاذا أردنا أن نسمي

طعام نصف النهار بكلمة غير كلمة (الغداء) فليس أمامنا سوى (الضحاه) و (الكرزمة) غير أن العدول عن كلمة (الغداء) إلى كلمة (الكرزمة) ليس بالأمر السهل .

ويقابل وجبة (الضحاه) العربية الثالثة وجبة الافرنج الثالثة ويسمونها (goûter) وهي وجبة اختيارية تكون عند طبقة من الناس دون طبقة وقد نام معشر العرب فيها ، وسميناها في لهجتنا الشامية (عصرونية) تسمية غير قياسية نسبة إلى وقتها الذي تقع فيه وهو عصر النهار . واشتهر اسم العصرونية على الاكثر بين تلاميذ المدارس الداخلية ، فان ادارة المدرسة تقدم اليهم بين وجبتي الغداء والعشاء كعكاً ونحوه . ولا أعلم إن كانت وجبة (العصرونية) مازالت إلى اليوم حية في المدارس الداخلية أو لا .

هذه عصرونية التلاميذ في المدارس والصغار في المنازل ، أما عصرونية الاغنياء في المقاصف فتكون على نمط أنظم ، ويتداعون اليها باسم أنخم ، ذلك قولهم (حفلة شاي) و (حفلة كوكتيل) . وقد قلدنا الافرنج في هذه الوجبة ، وقيمها في الأغلّب احتفالاً بضيف كريم أو تكريماً لصديق عزيز . ويُبسط على موائدها مع الشاي أكواب اللبن وأقراص الحلوى وغيرها مما يسمونه (كاتو) وهو على أشكال شتى .

ويؤخرون وقتها عن العصر إلى الغروب أو الساعة الخامسة مساءً عاكاةً للانكليز ، الذين هم أصحاب هذه الوجبة ، وأبناء بجدتها ، واسمها في لغتهم (فايف أو كلاك تي - Five o'clock tea) . ويختصرون أحياناً دينولون Five o'clock أي شاي الساعة الخامسة .

ولا أذكر أن للعرب في جاهليتهم وجبة تقع في العصر : بين وجبتي الظهر والمساء .

الوجبة العربية الرابعة

العشاء (بفتح العين) وهو الطعام الذي يقع في العشاء (بكسر العين) أي في المساء وهو أول الليل أو بُعَيْدُ أوله . قال في المخصص (ورعني الابل في العشي وأول الليل عشاء . وقد أمشت الابل وعشاها راعيها) . وقال ابن السكيت : (عشون الابل عشيتها وكذلك الرجل) . فابن السكيت نص على أن التسمية بالعشاء تكون للبشر كما تكون للابل . أما صاحب المخصص فلم يذكر البشر ، فربما اتخذ قوله دليلاً على أن الأصل في العشاء أن يُستعمل في الابل ثم نقل إلى الناس توسعاً أو تسامحاً . وفي هذا رمز إلى ما في نفوس العرب للابل من التعظيم والتكريم والتأسي بها حتى في تكاليف حياتها .

ووجبة العشاء قل استعملها أو الاحتفال بها اليوم بيننا معشر سكان الأمصار العربية الكبرى بعد أن كانت أكبر وجبات الطعام وأشدّها عناية عند أجدادنا ، فنحن اليوم ولا سيما المترفين منا نحفل لوجبة الغداء التي تقع بعد الظهر ، ونُصيب من أطايبها . ومختلف أوانها ، نستغي بها عن طعام العشاء ، وإذا أصبنا منه كان إلامة خفيفة على حد قول الافرنج (Casse - Croûte) لكن ظروف استثنائية أو تقليدية قد تدعونا إلى الاحتفال للعشاء . وتعدد أوانه كما يحتفل للغداء .

ويقابل وجبة العشاء العربية الرابعة وجبة الافرنج الرابعة التي يسمونها Diner والتي كانت قديماً وجبة الظهر عندهم ، خلفتها الوجبة المسماة Déjeuner وقامت مقامها وأرجئت هي إلى المساء وأصبحت اختيارية ، وهذا كما وقع في الوجبتين المرئيتين : الغداء والعشاء . فان الغداء قام مقام العشاء وسلبه ميقاته . والاحتفال له .

الوجبة العربية الخامسة

« الفُحَّيَّاء » : قال ابن سيده في المخصص (جزء ١٦ ص ٧٠)
(الفُحَّيَّاء طعام الليل) واسمه هذا مأخوذ من قول العرب فَحَّصَهُ الليل
يريدون ظلمته ، والراجح أن هذه الوجبة العربية اختيارية كانوا يفعلونها
حين الحاجة إليها لقلة ما نسمع ذكرها في أخبار العرب وكتب الأدب .
ويقابل هذه الوجبة العربية الخامسة وجبة الافرنج الخامسة ويسمونها
سوپه (Soupé - Souper) .

ووجبة الـ (Souper) مثل وجبة الـ (Diner) في أن إحداها كانت
تُطلق على طعام نصف النهار والآخرى على طعام المساء ، غير أن
احتفالهم للغداء ولوجبة الشاي (فايف اوكلوك) أحياناً — جعل هذه
الوجبة الخامسة (أعني الـ Soupé) اختيارية لمن اضطره إليها الجوع
أو السهر في مشاغل العمل ، أو شهود الحفلات والمراقص ودور التمثيل
والسينما وسائر ضروب اللهو — فإن هؤلاء يرجعون إلى بيوتهم فيصيبون
من الطعام ما يسمونه Soupé وتسميه العرب (فُحَّيَّاء) .

على أن هذه (الفُحَّيَّاء) تحولت في المدن الكبرى إلى ما يصح أن
نسميه (نويراء) اشتقاقاً من النور : ذلك أن الطعام في آخر الليل
قد لا يتيسر في المنازل . فأعدت المدينة الحديثة لمدمني السهر خارجها
مقاصف خاصة وهي المسماة (بارات) و (بوفيات) (Buffet) تكون
مفتحة الأبواب على الشوارع الكبرى تحت مواقع الأبخار . منارة بأسطع
الأضواء . وعلى موائدها صفت الصحف والسكرجات وفيها الضروب
المختلفة من خفيف الطعام وشهي الشراب ، فترى القوم حوالها ، متهاوتين
على ما عليها ، وقوفاً على أمشاط أرجلهم أو جلوساً على الكراسي الخاصة
بتلك الموائد . وأمثال هذا الأكل العَجِيل كما هو الحال في هذه المقاصف
يُعتبر عنه الافرنج بقولهم (رستوران آلامينوت Restaurant à la minute

أي طعام بمقدار الدقيقة أو على مقدار ما تسع الدقيقة ، نظير ما نقول
في لهجتنا الدارجة : على المائتي أو على الواقف ، وربما كان معناها قول
المصريين « على الحركرك » .

ويسمى بعضهم هذه المقاصف الليلية (البارات الأمريكية) لأنها
من جلبب الأمريكيين ومحصول مدينتهم ، وهي تتناز بأشكال مناخدها
وارتفاع مقاعدها ، وصنوف أطعمتها وتُغليها ، وازياء سقاتها وندلها .

* * *

وخلاصة ما مر :

(١) أن العُلقة العربية يقابلها Petit déjeuner الافرنجية

(٢) والغداء العربي يقابله Déjeuner الافرنجي

و Lunch الانكليزي

(٣) والضحَاء العربي يقابله goûter الافرنجي

وأشهر منه Five o'clock الانكليزي

(٤) والعشاء العربي يقابله Dîner الفرنجي

(٥) والفُحَّيَّاء العربية يقابلها Soupé الفرنجي

وقد تبين مما مر أن الوجبات عندنا خمس كما هي عند الافرنج ،
اللهم إلا إذا اعتبرنا (الكرزمة) العربية وجبة مستقلة استناداً الى قول
الامام اللغوي (الليث) الذي قال انها طعام نصف النهار ، فتكون
وجبات الطعام عند العرب ستاً لاخمساً .

ونكرر ما قلناه سابقاً من أن المفارقة بين وجباتنا العربية والوجبات
الافرنجية انما هي من حيث العدد والترتيب والوقوع في الخارج ، لا من
حيث الزمن . فان ايقاع الوجبات في الازمان يختلف ولا يطرده حتى
بالنسبة الى الشخص الواحد ، فان في الأشخاص من اذا جاع أكل
ولا يتقيد بزمن .

وهذه الوجبات الخمس منها ما هو أصلي راتب أو نقول أساسي ،

ومنها ما هو فرعي يرجع فعله الى اختيار الشخص : ان جاع لقم .
والا أزم .

* * *

وهناك ما كل خفيفة ومعظمها من ضروب الحساء الذي يشرب شرباً ،
وهي ليست ذات وجبات موقونة ، وإنما هي مقدمات للوجبات الراقية
تتناول قبلها بسوينة ، وهي ما سته المترفون لانفسهم في حياتهم اليومية ،
أو في مادهم الخاصة . حتى أن المترف من الانكليز يتناول وهو مستلق
في فراشه قبل القيام إلى طعام الصباح المسمى بريك فاست (Break fast)
- ما يذله أو يفيد صحته من الأشربة وضروب الحساء (١) ، وكذلك يفعل
قبل أن ينام .

أما ما يُقدّم عادة أمام الوجبات الكبرى : فيكاد يكون وجبة
سادسة لكثرة ما يهيشو على مائدتها من لذيذ الأشربة ، وخفيف الأطعمة ،
وضروب المازة (المزة - أو - العاظة) لمن يتعاطى الشراب من الآكلين .
والذي يجعل هذه المائدة في عداد الوجبات أن فيها مطاعم تؤكل أكلا
وأن لها اسماً خاصاً وهو (هورديتر Hôr - d'oeuvre) أي خارج الطعام ،
بمعنى أنه مقدم قبل وقته .

وأجدادنا العرب كانوا يعرفون هذه (الوجيبية) (بالتصغير) ولها
في لغتهم عدة أسماء (مُلججة - مُلننة - سُلقة) بضم أوائلها ، وفسروها
بالطعام يُعمل به قبل الغداء . وقولهم يُعمل به يشعر بأنه إنما قُدِّم
ليكسر سُخفة الجوع (رقتته) ريثما يتهبأ الغداء وينضج .

(١) الدقيق الذي يعالج بالسن عند العرب ان كان مرعاً يشرب سمي حساء
وان كان جامداً فيه رخاوة سمي عصيدة . وان كان بين بين بحيث لا يشرب
شرباً سمي سخبنة .

أما أبناء هذا الزمن ، فيقصدون من تناول سُلقتهم (الموردية) (Horo d'oeuvre)
إثارة شهوة الطعام بمسكراتها . وضروب مازاتها
ان يسكر ، وبمعير الطاطم (البندورة) أو الليمون لمن لا يسكر . ومما
يكن من أمر فلا ينبغي أن تعد السُلقة ال (Horo d'oeuvre) طعاماً
موقوتاً وإنما هي من طلائمه ومقدماته .

ثم إن قول علماء اللغة في تفسير (السلفة) إنها تكون قبل الغداء
أرادوا بذلك الغداء مجرد التمثيل لا التخصيص في الغالب ولنا نحن اليوم
أن نتوسع في استعمال السُلقة أي الموردية (Hors oeuvre) فنطلقها
على ما يقدم بين يدي كل الوجبات الراقية غداء أو عشاء .

* * *

ومن لطيف بحوث الطعام وجبة سلبية يعتذر عنها البخلاء الاضحاء ،
وتبرّم بها حتى الاخوان الاسخياء ، وهي التي تَفَجَّأ رَبُّ المثنوى في غير
أوقات الوجبات المعتادة ، وكما أن شاعر العرب قال :

طرقنك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة ، فارجمي بسلام

كذلك مَضِيائهم وأحد ساداتهم قال لصديق له : (أكره أن
تورني في المُنَيْسَاء) : فهو لا يقول له ارجع بسلام ، كما قال ذلك
العاشق البغيض ، وإنما قال له أكره تلك الزيارة منك في المُنَيْسَاء ،
لئلا أعجز عن القيام بحق ضيافتك .

(والمُنَيْسَاء) أيها السادة هو الوقت الواقع بين المغرب والعشاء
أي بين وجبتي (العشاء) و (الفُحَيَاء) ففي ذلك الوقت لا يكون الطعام
مهيئاً عادة : فالطارق من الضيفان يُنَجَّل المضيف وبوقه في الحيرة ،
ولذا قال قائل الكرام (أكره أن تورني في المُنَيْسَاء) . ويشبه هذا
قول العامة معتذرين أو مفاكهن (ضيف المساملة عشا) .
وتطلق « المُنَيْسَاء » أيضاً لغة على نصف النهار ، إذ لا وجبة للطعام فيه

لأن العربي يكون أكل وجبة الضحاه ، ولا يكون هياً طعاماً لوجبة العشاء ، فنصف النهار عند العرب ليس وقت وجبة ، وهذا ما أراد (ابن سيده) في مخصصه حينما قال : (لأنه في ذلك الوقت - أي نصف النهار - يفوت الغداء ، ولم يهياً العشاء) .

ويكون ابن سيده في قوله هذا قد أنكر وجبة (الكرزومة) التي قال الليث عنها إنها طعام نصف النهار .

وللبساء في اللغة معنى ثالث ، وهو الشهر الذي تنقطع فيه الميرة ، أي تنفذ فيه الأقوات . وترتفع الغلال من البيادر والأسواق ، وهذا الوقت يعبر عنه أهل دمشق بقولهم « عصة المنجل » أي لا منجل يمحصد ، ولا محصود يموت . فقول الأعرابي : « أكره أن تزورني في المليساء » يصح أن يراد به أيضاً هذا الزمن الكثر ، الثقيل على الأجواد .

* * *

وما يحسن التنبيه إليه ، قبل إنهاء الكلام في موضوع الوجبات ، ما فسروا به كلمة (الثميلة) ما يشبه أن تكون اسماً لوجبة أول النهار ، مرادفة للعقيقة ، مع أن الأمر ليس كذلك . وهذه عبارتهم : « يقال : ما تمثت شرابي بشيء من طعام ، معناه ، ما أكلت طعاماً قبل أن أشرب ، وذلك يسمى (الثميلة) . وربما كان مرادهم بالشراب هنا الخمر . فالثميلة إذن هي الطعام الذي يؤكل فيشرب فوقه ، تقول لآخر : لتمت شرابك ، أي كل قبله ولو قليلاً ، ويكون هذا بالطبع في أي وقت من أوقات الليل والنهار ، فلا ينبغي أن تعد (الثميلة) بين أسماء الوجبات الصباحية .

وما ينبغي التنبيه إليه أيضاً أن استعمال الفطور بمعنى العقيقة التي هي طعام أول النهار غير صحيح لغة ، وبيانه أن الفطر والافطار معناها في اللغة أن يأكل الصائم بعد إمساك عن الطعام ، والطعام الذي يفطر عليه

يسمى (فطوراً) (بفتح الفاء) فالفطور إذن شيء والعقيقة التي يأكلها الإنسان بعد أن يتهب من منامه شيء آخر . وكان أصحاب هذا الاستعمال في زماننا يلاحظون أن الذي يصحو من نومه كان ممسكاً عن الطعام طول ليله ، فإذا أكل في ذلك الحين كان كأنه أفطر بعد صوم ، وأشبه أكله الفطور ، فسماوا أكله فطوراً ، لكنهم يضمنون أوله خطأ ، ومع هذا فالأصح أن لا يقال لطعام الصباح فطوراً بل عقيقة حسبما ذكرنا في أول هذا البحث الفضفاض الساحب الأذبال الذي أردت بالفائه عليكم أيها السادة تذكيركم أو أقول أردت إثارة عاطفة الاشفاق والحنان في نفوسكم ، على هذه الكلمات اللغوية الفصيحة المجفوة التي يمكن إحياؤها ، والتعميد لاستعمالها في لغة الصحافة والكتابة ، قبل أن تظاردها الكلمات الاعجمية فتصل أسنة السوء إليها ، وتقضي بالموت عليها .

* *

ونختم هذا البحث بما تضمنه من ألفاظ زارها صالحة للاستعمال في موضوع الطعام

٢٦ التابل	١ الاثوام
٢٧ الفحاء	٢ الثواب
٢٨ الدقة	٣ نصير الصياح
٢٩ الصياغ	٤ الطلي (طلي فم)
٣٠ الكامخ	٥ التلمع (جاء يلمع من العطس)
٣١ الوجبة	٦ السغب
٣٢ الوزمة	٧ العلة
٣٣ الوزبة	٨ الضرم
٣٤ الوقعة	٩ الخرس
٣٥ العلقة	١٠ الخوى
٣٦ البلغة	١١ الطوى
٣٧ الغفة	١٢ القصف (بطن قصف)
٣٨ الرماق	١٣ الجخر
٣٩ متوع النهار	١٤ الخفوت
٤٠ الضحاء	١٥ الأبط
٤١ الكرزمة	١٦ العصب
٤٢ الفحيا	١٧ الطهاة
٤٣ فحمة الليل	١٨ التدل
٤٤ السمجة	١٩ المشكة
٤٥ الشنة	٢٠ الجفنة
٤٦ السلفة	٢١ الشاة المصليئة
٤٧ سخفة الجوع	٢٢ أكل الشواء بآدمه
٤٨ المليساء	٢٣ أكل الشواء بأثماطه
٤٩ التحييلة	٢٤ الأزار
٥٠ الفضافاض	٢٥ الأفاويه